جدلية القيم الأخلاقية ومستقبل الإنسانية

د. محمد بوالروايح
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية -قسطينة-

يعتقد أصحاب القانون الطبيعي أن الحياة الإنسانية كما بدأت تعود، بمعنى أنها بدأت في صورتها الهمجية الأولى، وأنها ستنتهي إلى هذه الصورة، وصورة البدء والعود هذه في نظرهم معادلة كونية لا تقبل الجدل.

ويعتقد أصحاب النزعة الروحانية المحضة أن الحياة الإنسانية بدأت روحانية ، وأنها ستنتهي إلى هذه الصورة وإن ناءت بها أثقال المادة وهذه الصورة الروحانية عند هؤلاء معادلة كونية أيضا لاتقبل الجدل .

ويعتقد أصحاب النزعة المادية أن الحياة الإنسانية بدأت مادية ،وأنها ستنتهي إلى هذه الصورة وإن لبست في بعض الأحيان لبوسا روحانيا ، لأنها لا تفتأ أن تعود إلى صبغتها المادية التي فطرت عليها ؛ وهذه الصورة المادية للحياة الإنسانية عند هؤلاء معادلة كونية لا تقبل الجدل ،والآن وقد عرضت الصور الممكنة للحياة الإنسانية في عرف أصحاب القانون الطبيعي و أصحاب النزعة الروحانية وأصحاب النزعة المادية التاريخية على وجه الخصوص فلا مناص من القول إن الصورة الطبيعية للحياة الإنسانية وفق النسق الطبيعي المحض صورة غير مقبولة،لأنها تعد -والحالة هذه - ارتكاسة حضارية تتعارض مع النواميس الكونية ، ثم إن الصورة الروحانية للحياة الإنسانية وفق النسق الروحاني المحض صورة غير مقبولة كذلك ،لأنها تعد ضربا من المثالية التي يكذبها الواقع .

والصورة المادية للحياة الإنسانية وفق النسق المادي المحض صورة غير مقبولة كذلك ، لأن الحياة الإنسانية أكبر من أن تختصر في المادة .

إن رفض النزعة الطبيعية والنزعة الروحانية والنزعة المادية في تفسير الحياة الإنسانية ،لا يعني أن هذه النزعات لا تمثل شيئا في ميزان الحضارة ولكن يكون لها هذا إذا أخذت آحادا يستغني أحدها عن الآخر ، فاجتماع هذه النزعات الطبيعية والروحانية والمادية ،هو الذي يوجد منظومة القيم المختلفة التي تحكم الحياة الإنسانية ، ومن هذه القيم ،القيم الأخلاقية ،التي يؤدي اجتماع الطبيعة والروح والمادة إلى إيجادها في المجتمع ،من غير أن يبغي جانب على جانب .

إن القيم الأخلاقية بهذا المفهوم المركب والمتكامل قيم طبيعية ،لأنها تغترف من القانون الطبيعي معاني الضعف والقوة ،والتعاون والتكافل ، التي يحتاج إليها الناس في علاقاتهم بعضهم ببعض ،وهي كذلك قيم روحانية ،لأنها لا تستغني عن كماليات الروح أمام كماليات المادة ، وهي كذلك قيم مادية لأن الإنسان في التصور الصحيح نفخة من روح وحفنة من تراب ن ومن ثم فلا مناص من إثبات الجانب المادي فيه ، بالقدر الذي يجعله يحقق وجوده ويؤمن حياته ، ويكتشف حاجاته ويستشرف مستقبله .

إشكالية الموضوع:

إذا أردت أن أحدد إشكالية لموضوع القيم الأخلاقية ومستقبل الإنسانية ،فإنه يمكن القول إن هذه العبارة تنطوي على جدلية حضارية مفادها أن القيم الأخلاقية في المجتمعات الإنسانية قيم متواترة متجددة ، لا تسقط بالتقادم ،فهي كما كانت صالحة للقرون الأولى ،فهي أيضا صالحة للقرون الأخيرة ، ومن خصائص هذه القيم الأخلاقية المتواترة والمتجددة أنها قيم ضرورية حينما نفكر في استشراف مستقبل الإنسانية ، وهذا في اعتقادي هو العاصم الوحيد من الأزمة الحضارية التي استحكمت حلقاتها واستعصى حلها ،حتى إنها تكاد

تعصف بالمجتمعات الإنسانية وخاصة المجتمع الغربي المتمدن فتنسف مدنيته وتأتي على بنيانه من القواعد .

إن كثيرا من الدراسات والتجارب أثبتت أن المدنيات والحضارات التي لا تأخذ بالقيم الأخلاقية بحظ يذكر لا جرم أنها ستصبح متهافتة متآكلة آيلة للسقوط ولو بعد حين.

إن موضوع القيم الأخلاقية ومستقبل الإنسانية وفق المنظور الذي أفصحت عنه ، يحدد بوضوح العلاقة التكاملية ، التي يجب أن تكون بين الأخلاق والحضارة ،لأن أي فصام بينهما ستكون له –لا محالة- عواقب وخيمة على مستقبل الإنسانية ، ولذلك فإذا كانت الحضارة لا تتحقق إلا بوجود قيم أخلاقية ترعاها وتحفظها فعندئذ لا مناص من تطبيق القاعدة الأصولية (ما لا يتحقق الواجب إلا به فهو واجب).

وسأحاول بحث موضوع القيم الأخلاقية ومستقبل الإنسانية من خلال بيان الأثر الأخلاقي ودوره في ترشيد الحصاد المادي للحضارة الإنسانية.

معنى القيمة والأخلاق بصفة عامة

ا- معنى القيمة :

كلمة (قيمة) تدل أصلا على اسم النوع من الفعل (قام)، بمعنى وقف واعتدل وانتصب وبلغ واستوى[1].

وتدل القيمة مجازا على ما اتفق عليه أهل السوق وقدروه وروجوه في معاملاتهم بكونه عوضا للمبيع[2] ، فهي كما يقول الزبيدي :(ثمن الشيء بالتقويم)[3]، ولا يعني هذا أن معناها مرادف لمعنى الثمن ، لأن بينهما فرقا يشير

---

[1] الزبيدي ،تاج العروس،دار صادر بيروت،1966،م9 ،ص 35 وما بعدها.

[2] التهانوي،كشاف اصطلاحات الفنون ،خياط ،بيروت ،بدون تاريخ ج1 ص 178.

[3]-الزبيدي ، المرجع السابق ، ص35.

إليه الزبيدي حين يجعل التقويم قيدا لثمن الشيء في تعريفه[4] ، ويوضحه التهانوي بقوله :(الثمن هو ما اتفق عليه العاقدان في البيع ويكون مساويا للقيمة ،وزائدا عليها وناقصا عنها)[5].

إن القيمة كما سبق تعريفها هي كالثمن ذات معنى اقتصادي ، ويمكننا أن نجد لها معاني أخرى إذا تتبعنا استعمالها واستعمال الألفاظ المشتقة من نفس مصدرها[6]،فمن العبارات الشائعة قولنا (ما له قيمة) إذا كان لا يدوم ولا يثبت على حال إذا فهمت العبارة بمعنى النفي أو إذا كان على خلاف ذلك إذا فهمت العبارة بمعنى الإثبات .

ومن معاني القيمة أيضا وصف الإنسان أو الشيء أو العمل أو الدين بكونه قيما (بتشديد الياء)،يعني مستقيما ، والإنسان القيم هو المستقيم وكذلك الدين القيم[7].

ونجد في القرآن الكريم قوله تعالى:(**فيها كتب قيمة**)[8] ،(**وذلك دين القيمة**)[9] ومنها أيضا استقام الأمر ومعناه اعتدل[10] ، واستقام الشعر أي:اتزن[11] ،وكذلك

---

[4] -نفس المرجع ،ص35.

[5] -التهانوي ، المرجع السابق،ص178.

[6] الربيع ميمون ،نظرية القيم في الفكر المعاصرين النسبية والمطلقية ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1980 ص27.

[7] -سماها الزبيدي الديانة القيمة انظر الزبيدي ، المرجع السابق ،ص37.

[8] -البينة 3.

[9] البينة 5.

[10] الزبيدي ، المرجع السابق،ص35.

[11] نفس المرجع، ص 37.

يوم القيامة ؛ أي يوم البعث ،الذي يقوم فيه الخلق بين يدي الحي القيوم [12]، وهو الله الذي يدبر أمر خلقه[13].

إن العبارات السالفة التي أوردتها لبيان المعاني اللغوية المختلفة التي يرد بها لفظ القيمة ،عندما نتأملها لا نجد فيها أثرا للمعنى الاقتصادي بل إشارة إلى معاني أخرى تدل على كمال بينها فيما يدل مقابلها على نقصان [14]، ولذلك قد يخرجنا تأملنا لهذه المعاني من مجال علم الاقتصاد إلى مجالات أخرى منها المجال الفلسفي والأخلاقي للقيمة ، وكان اللاهوتي ريتشل أول من استخدم المعنى الفلسفي للقيمة في بعده الأخلاقي ،وورد في معجم ألفاظ القيم الأخلاقية وتطورها الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم [15] أن لفظ القيمة أخذ من قوم (بتشديد الواو) ،وقد استعمل جذرها للدلالة على معان مختلفة منها الانتصاب والوقوف كما أشار إلى هذا المعنى أيضا الزبيدي[16] ثم تطور واستعمل استعمالا معنويا.

وقد ورد الجذر (قاوم) في الاستعمال القرآني إحدى وستين وستمائة مرة[17] ، وتدور معانيه كلها حول النهوض أو الانتصاب أو الاعتدال بمعانيه المادية والمعنوية ونذكر منها:

- الثبات والنهوض في قوله تعالى:(**وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم**)[18]،أي إذا اختفى البرق وفتر لمعانه وقفوا على

---

[12]-نفس المرجع ،ص37.

[13] -نفس المرجع ،ص 36.

[14]-الربيع ميمون، المرجع السابق، ص28.

[15] -كتاب لنوال كريم زرزور ،مكتبة لبنان ،ط1 ،2001 ،ص10 وما بعدها.

[16]-الزبيدي ،المرجع السابق ، ص35 وما بعدها .

[17]-انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم،مجمع اللغة العربية ، القاهرة مادة (قوم).

[18] -البقرة20.

السير وثبتوا في مكانهم وفي هذا تصوير لمدى ما هم فيه من غاية التحير والجهل بالمصير ؛ ولو شاء الله لزاد في قصف الرعد فأصمهم وذهب بأسماعهم[19].

-أقام الشيء بمعنى عدله وأزال عوجه يقال أقام البناء وأقام الجدار في مثل قوله تعالى:(فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه)[20].أي عدله وأزال عنه العوج ومنه أيضا الإقامة بمعنى الاستقامة:(**وأن أقم وجهك للدين حنيفا**)[21].

وكل المعاني التي ذكرتها تتعلق بالمدلول اللغوي للقيمة، وأما المدلول الاصطلاحي للقيمة فقد تناوله الباحثون المعاصرون في دراساتهم المختلفة ،فذهب الاجتماعيون منهم إلى أن القيمة(طريقة في الوجود أو السلوك يعترف بها شخص أو جماعة على أنها مثال يحتذى وتجعل من التصرفات أو الأفراد الذين تنسب إليهم أمرا مرغوبا فيه أو شأنا مقدرا خير تقدير)[22] ،فالقيمة بهذا المعنى تعني الاهتمام بشيء أو استحسانه أو الميل إليه والرغبة فيه ونحو هذا مما يوحي بأن القيمة ذات طابع شخصي ذاتي[23]، والقيمة بمعنى آخر هي (مجموعة الخصائص الثابتة للشيء التي يقدر بها ويرغب فيه من أجلها)[24]، فالقيمة بوجه عام حقائق تعبر عن التركيب الاجتماعي فعلم الاجتماع لا يهتم بتخمين وزنها الجوهري بقدر ما يهتم بتطبيقها على الأفراد والجماعات بغية معرفة مستوياتهم الاجتماعية والفوارق السيكواجتماعية التي تميز بعضهم من

---

[19] -الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ،مطبعة البابي الحلبي وأولاده،1954،ج1نص89.

[20] -الكهف 77.

[21] -يونس 105.

[22] -مليحة عوني الصغير ومعن خليل العمر ،مدخل إلى علم الاجتماع العام ،مطبعة جامعة بغداد ،1981،ص93.

[23] نوال كريم زرزور ، المرجع السابق ،ص12.

[24] إبراهيم مدكور وآخرون ، معجم العلوم الاجتماعية ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1985،مادة قيمة.

بعض (وقد أشار بعض المؤرخين ممن عنوا بالدراسات الحضارية إلى بعض جوانب القيم ضمن سياق دراستهم للنظم والتقاليد العربية ورأوا أن مفهوم القيم يعني السلوك الخلقي الذي يميز جماعة خلال فترة زمنية معينة ، ويتمثل هذا السلوك بشكل عملي بالكرم والنجدة والحلم والعفة والصبر والوفاء[25].

إن القيمة جزء مهم وواسع من علم الأخلاق وقد عرفها بعضهم ضمن هذا السياق بأنها ما يجب فعله فهي مثل عليا وانفعالات من الإنسان نحو غايات يصوغها بحرية) [26]فمادامت هذه القيم كامنة في طبيعتنا فهي ثابتة لا تتغير بتغير الظروف والملابسات، ومن ثم تختلف باختلاف من يصدر الحكم.

ويطلق لفظ القيمة في علم الأخلاق على ما يدل عليه لفظ الخير والشر (بحيث تكون قيمة الفعل تابعة لما يتضمنه من خيرية ، فكلما كانت المطابقة بين الفعل والصورة الغائية للخير أكمل كانت قيمة الفعل أكبر وتسمى الصور الغائية المرتسمة على صفحات الذهن القيم المثالية ، وهي الأصل الذي تبنى عليه أحكام القيم أي القيم الإنشائية)[27].

إن القيمة ليست مجرد أمور واقعية عندما نجدها متحققة في فاعلية بعض الناس ولكنها أيضا أمور واقعية لأنها تمثل على طريقتها الخاصة وقائع تفرض ذاتها على الإنسان بغية توجيهه من قبل أن ينهض بأي تحقيق ومثل ذلك المثل الأخلاقي الأعلى.

بعد هذا العرض السريع لمدلول القيمة في اللغة والاصطلاح ، لابد من تحديد العلاقة بين المدلول اللغوي والمدلول الاصطلاحي ؛ فالمدلول اللغوي

---

[25] نوال كريم زرزور ، المرجع السابق ،ص12.

[26] - عبد المنعم خفاجي ،الموسوعة الفلسفية ،دار ابن زيدون ،مكتبة مدبولي ط1 ،ص3 وانظر أيضا:المعجم الفلسفي ،تصدير إبراهيم مدكور ،مجمع اللغة العربية ،مصر الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، 1983،ص151.

[27] -جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1982، ج2، ص212.

يعبر عن المعنى المادي المجرد للقيمة ،في حين يعبر المدلول الاصطلاحي على الانتقال من الدلالة المادية إلى الدلالة المعنوية ،فالقيم تبعا لذلك نوعان :قيم إيجابية أو قيم مثالية كما سماها الفلاسفة ، وقيم أخرى سلبية فالنوع الأول هي قيم عليا أو مثلى ، والنوع الثاني هي قيم دنيا مبتذلة.

ونخلص من كل هذه التعريفات إلى أن مصطلح القيمة ليس له معنى محدد بصفة معينة ، وإنما هو لفظ عام لا يدل على إيجاب أو سلب ، فلا يتحدد ذلك إلا بذكر الصفة أو استعمال قرائن أحوال تدل عليه :بالإضافة إلى أن القيم المثالية لا تظهر ميزاتها إلا بذكر المقابل لها فلولا وجود الجور مثلا لما استطعنا أن نعرف ميزة العدل ونسميه قيمة عليا وهكذا مع بقية القيم المثالية الأخرى .

ب-معنى الأخلاق: ونبحث في مدلوله اللغوي ومدلولها الاصطلاحي ، فالخلق في المدلول اللغوي الطبيعة ،التي يخلق بها الإنسان [28]والخلق أيضا الدين والمروءة ، وقد استعمل الشعراء الجاهليون مادة خلق –بضم الخاء للدلالة على المعاني المذكورة في المعاجم اللغوية فجاءت بمعنى الطبع والسجية والمدلول الاصطلاحي للأخلاق قريب من المدلول اللغوي إلا أن هناك تعدد الآراء بشأنه نظرا لتضارب مفهوم الأخلاق بين الاتجاهات والمذاهب المختلفة ، ويعد كتاب ابن مسكويه :(تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراف) ،أكمل دراسة علمية في الأخلاق وقد قسمه إلى سبع مقالات تحدث فيها عن النفس وقواها ،وأبان أن الفضائل أوساط بين أطراف متباعدة ،وكان يهدف من وراء ذلك إلى إيضاح الطريق إلى السلوك القويم بعد دراسة عملية تجعل التزام هذا السلوك سهلا لا مشقة فيه ، وقد عرف ابن مسكويه الأخلاق بقوله:(الخلق-بضم الخاء-حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية وهذه الحال تنقسم إلى قسمين:منها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج

---

[28]-الزمخشري ،أساس البلاغة ،مطبعة دار الكتب ،مصر 1973،مادة خلق وانظر ابن منظور ، لسان العرب دار صادر للطباعة والنشر ،1955،مادة خلق.

كالإنسان الذي يحركه أدنى شيىء نحو الغضب ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدريب وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ثم يستمر عليه أولا فأولا حتى يصير ملكة وخلقا)[29].

إن الأخلاق عند ابن مسكويه حالة للنفس حين تصدر عنها أفعالها بسهولة سواء كان مصدرها الطبع أو التدريب حتى تصير ملكة أو عادة[30].

وقد صنف أبو حامد الغزالي (ت505)،كتابا خاصا لبحث المسألة الخلقية أسماه (إحياء علوم الدين)،وقد جدد مفهومه للأخلاق بقوله :(الخلق-بفتح الخاء- والخلق –بضم الخاء- عبارتان مستعملتان معا يقال :فلان حسن الخلق والخلق أي حسن الباطن والظاهر فيراد بالخلق –بفتح الخاء-الصورة الظاهرة ويراد بالخلق –بضم الخاء- الصورة الباطنة ، وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر وروح ونفس مدرك بالبصيرة ولكل منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدرا من الجسد المدرك بالبصر ، فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة ،عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت الهيئة خلقا حسنا وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا)[31].

وبهذا المفهوم للأخلاق يكون الغزالي قد ميز الخلق –بضم الخاء – من التخلق أي السلوك المتكلف الذي لا يسمى خلقا حتى يصير عادة للنفس راسخة ويعني بالعادة تكرير فعل الشيىء الواحد مرارا كثيرة زمنا طويلا في

---

[29]- إبن مسكويه،تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراف،مطبعة دار المعارف،بيروت 1327هـ ص33.

[30] -نوال كريم زرزور، المرجع السابق ،17.

[31] -أبو حامد الغزالي ،إحياء علوم الدين ،طبعة دار الشعب ،القاهرة بدون تاريخ، ج3، ص53.

أوقات متقاربة كما أن الأفعال التي لا يترتب على فعلها مدح ولا ذم تخرج عن نطاق الأخلاق ولا يوصف صاحبها بأنه خير أو شرير[32]. وإذا تجاوزنا المفهوم الاجتماعي للأخلاق إلى المفهوم الفلسفي فإننا نجد أن الفلاسفة عرفوا الأخلاق بأنها (مجموع متفاوت النسق من التحديدات المثالية والقواعد التي يجب على الإنسان أن يحققها بفعله في الوجود حتى يزداد هذا الوجود قيمة)[33]. وحقيقة الأخلاق من غير ما ذكر من المفاهيم الاجتماعية والفلسفية فهي:(مجموعة من قواعد السلوك التي يتصف بها الإنسان)[34].

وتنبغي الإشارة إلى أن الأخلاق في عمومها تمثل منظومة متسقة من القيم ، ولذلك فإن الأخلاق وفق هذا الإطار لا تخرج في معناها اللغوي والاصطلاحي عن القيمة وهي عادة ماتكون قيمة أساسية اعتبارية لأنها مناط كل السلوكات الإنسانية.

ثانيا: خصائص القيم الأخلاقية :

لقد ذكرت أن القيم الأخلاقية نوعان قيم إيجابية أو عليا وقيم سلبية أو سفلى ،لأنها تقوم الخلق المتضمن هاتين الناحيتين ، ولقد جرت عادة الباحثين أن يردوا القيم الأخلاقية في مجملها إلى قيمتين أساسيتين هما الحق والخير وتضاف إليهما القيمة الدينية أو التقديس ، وإن جمهور الفلاسفة على وجه التقريب يكادون يجمعون على أن مهمة الدين هي العناية بحماية القيم والربط بينها في وحدة شاملة ومتناسقة تمثل قيمة الخير والحق فيها أعلى القيم ، ولما كانت القيم الأخلاقية تمثل كلا مترابطا فإننا نجد الإنسان الذي ينشد الخير لا بد أن يراعي الحق ،ومن ثم يمكننا القول إن الحق والخير يمثلان أسمى القيم فهي قيم جبلية أو سوقية وجدت لتهذيب النوازع الشريرة في الطبيعة الإنسانية.

---

[32] -نوال كريم زرزور ، المرجع السابق ، ص17.

[33] -نفس المرجع ،ص17.

[34] -نفس المرجع ،ص18.

وللقيم الأخلاقية خصائص عديدة ومن أهمها:

1-الصبغة الدينية للقيم الأخلاقية :

وتتأكد هذه الصبغة الدينية من كون القيم الأخلاقية في كل المجتمعات القديمة والحديثة والدينية وحتى الوضعية قد نشأت من مشكاة دينية مع مراعاة الاختلاف الحاصل في هذه المجتمعات بشأن طبيعة الدين أو قدسيته أو حدود هذه القدسية ،فالدين بما يمثله من قيم إلهية خالدة كان ولا يزال البوتقة التي تنصهر فيها كل القيم ومنها القيم الأخلاقية فحتى الدراسات الفلسفية المادية التي أنكرت الدين من حيث هو وضع إلهي لم تنكر وجود الحس الديني في المجتمعات الإنسانية في شكل أنماط عبادية وطقوسية لا تخلو من مضامين دينية.

2-نسبية القيم الأخلاقية:

بمعنى أنها ليست واحدة في كل المجتمعات الإنسانية ،لأنها تتعلق بالإنسان والإنسان كائن نسبي وليس كائنا نمطيا إذ تتغير رغباته وميوله وأحكامه وسلوكه بحسب الزمان والمكان وطبيعة الموروث الديني والفكري و الاجتماعي

3-ثبات القيم الأخلاقية:

يرى الفلاسفة أن القيم يجب أن تتصف بالثبات ، لأنه ينجم عن عدم ثبات القيم الأخلاقية أن يصبح السلوك الإنساني معوجا ، فثبات الإنسان لا يتحقق إلا بثبات القيم الأخلاقية ، و لكن ثبات هذه القيم واستقرارها سوف يظل أمرا نسبيا سواء بالنسبة للإنسان واضع القيم أو بالنسبة لصيرورة هذه القيم في المجتمع ، وهذا يعني أن تكون القيم نسبية وثابتة في نفس الوقت إذ أن الثابت ليس مطلقا والنسبية ليست فردية وجزئية فالمجتمع له دور كبير في تثبيت القيم الأخلاقية وتطورها .

4-القيم الأخلاقية قيم علوية وملزمة:

هناك شعور كامن في النفس الإنسانية وهو أن القيم الأخلاقية قيم علوية ، وهناك تفسيران لعلو القيم الأخلاقية تفسير تقويمي يرى أن الضمير الإنساني حين يضع القيم إنما يفترض فيها هذا العلو ،ومن ثم كان الضمير هو الصورة للقيم العالية والسامية ،وتفسير اجتماعي يرى أن علو القيم ناشئ عن مصدرها الاجتماعي ،لأن المجتمع يكون دائما أعلى من الفرد بل ويشعره بالإلزام والضرورة تجاه القيم فالضمير الاجتماعي أقوى من الضمير الفردي [35]، ولهذه الاعتبارات قلت إن القيم الأخلاقية قيم ملزمة يفرضها الضبط الاجتماعي ؛ ولذلك لا يجب أن يعتقد أحد لاعتبارات ذاتية أنه في حل من هذه القيم ،أو أنها قيم طوعية تخضع للاختيار الإنساني فهذا التصور يفقد القيم الأخلاقية خاصيتها الإلزامية.

5-القيم الأخلاقية قيم جماعية كلية :

رغم أن أهل الاصطلاح ذكروا أن هناك نوعين من القيم الأخلاقية القيم الشخصية التي تحدد سلوكات الأفراد ، والقيم الجماعية التي تحدد سلوكات الجماعات الإنسانية ، ولكن هذا لا يعارض قولنا إن القيم الأخلاقية قيمة جماعية كلية ،لأن القيم الأخلاقية الفردية ليست مطلوبة ولا معتبرة لذاتها ، وإنما هي عناصر كامنة في منظومة القيم الأخلاقية الجماعية يقول جان بول رزقبر :(الحكم الأخلاقي حكم كلي ومن ثم فهو حكم متماثل ومتعال)[36].

---

[35]-فايزة أنور أحمد شكري ،القيم الأخلاقية بين الفلسفة والدين ،دار المعرفة الجامعية،مصر 2002،ص72.

[36] -جان بول رزقبر،فلسفة القيم ،تعريب عادل العوا ،عويدات للنشر والطباعة ،بيروت،ط1،2001،ص96.

ويذهب بول سيزاري[37] إلى أن القيمة حتى في مدلولها الاقتصادي لا يمكن أن تخرج عن مجال الضبط الاجتماعي حيث يقول:(...فإن للحتميات الاجتماعية شأوا في التحديد المشروع للقيم).

والقيم الأخلاقية بحسب خصائصها التي ذكرتها ، لا يمكن أن تتحقق إلا في إطار ثلاثية لا محيص عنها وهي الدين والدولة والمجتمع ،فمن الدين تأخذ هذه القيم صبغتها الدينية ،ومن المجتمع تأخذ صبغتها الجماعية والاجتماعية ومن الدولة تأخذ صبغتها الإلزامية ،إذ الدولة هي الراعية للقيم الأخلاقية .

ثالثا:القيم الأخلاقية ومستقبل الإنسانية:

لا يجب أن نقبل التصور الفكري القائل بأن القيم الأخلاقية لا تمثل ضرورة من ضرورات الحياة الحضارية الإنسانية ،بزعم بعض المفكرين أن الإنسان يمكنه أن يقيم حضارة وإن لم يؤسس هذه الحضارة على قيم أخلاقية ، ولعل هذا التصور غير الأخلاقي لقيام الحضارات يغترف من الفكر الصهيوني ،فالأخلاق في هذا الفكر قيم مبتذلة ، فقد جاء في البروتوكول الأول من بروتوكولات حكماء صهيون:(إن السياسة لا تتفق مع الأخلاق في شيء والحاكم المقيد بالأخلاق ليس بسياسي بارع وهو لذلك غير راسخ على عرشه ، فلا بد لطالب الحكم من التحلي بالمكر والرياء ،فإن الفضائل الإنسانية من الأمانة والإخلاص رذائل في السياسة)[38].

ويخطط الفكر الصهيوني للصراع بين الدول والشعوب حينما يجعل القوة وحب السيطرة هما جوهر وغاية القانون الطبيعي، وقد تأكد ذلك في العبارات الأولى للبروتوكول الأول:(يجب أن يلاحظ أن ذوي الطبائع الفاسدة من الناس أكثر عددا من ذوي الطبائع النبيلة وإذن فخير النتائج في حكم العالم ما ينتزع

---

[37] -بول سيزاري القيمة ،تعريب عادل العوا ،منشورات عويدات بيروت ط1 ،1983،ص97.

[38] -بروتوكولات حكماء صهيون ،مكتبة الزهراء الجزائرط2 1991، ص25.

بالعنف والإرهاب لا بالمناقشات الأكاديمية، كل إنسان يسعى إلى القوة، وكل إنسان يريد أن يصير دكتاتورا ما كان ذلك في استطاعته، وما أندر من لا ينزعون إلى إهدار مصالح غيرهم توصلا إلى أغراضهم الشخصية)[39].

و يقرر البروتوكول الأول أيضا أن الغاية تبرر الوسيلة، ولذلك لا ينبغي أن نلتفت إلى ما هو أخلاقي بل يجب أن نلتفت إلى ما هو ضروري ومفيد[40].

وهذه النظرة الميكيافلية لا شك أنها تغترف صراحة أو ضمنا من كتاب الأمير لميكيافلي ،الذي يعد أول من وضع مبدأ الغاية تبرر الوسيلة وفي ظل هذا التصور الميكيافلي تضيع القيم الأخلاقية ولا يكون لها سلطان على الناس والمجتمعات .

ا- القيم الأخلاقية ومستقبل الإنسانية من منظور الفكر المادي :

إن الفكر المادي يعتمد أساسا على العقلانية والتجريبية المحضة لإنجاز حضارته المادية ،مبعدا في ذلك كل القيم من قيم دينية وغيرها ، وإذا استعرضنا التحولات الكبرى التي عرفها الفكر المادي يمكننا أن نلحظ مفارقة أساسية ،ذلك أنه لا سبيل إلى نكران حقيقة وهي أن التقدم العلمي الذي تحقق منذ عصر الحداثة حمل في طياته كثيرا من عوامل اختلال القيم إن على المستوى الاجتماعي أو على المستوى الفكري والاقتصادي ، وهي سبب الأزمة الحضارية الشاملة والدقيقة التي يواجهها العالم المتمدن ، فمرد هذه الأزمة إلى التفكير في بناء الحضارة على الأسس المادية دون إعطاء أهمية للقيم الأخلاقية.

إنه لا يجب أن نقع في الخلط الذي وقع فيه كثير من الباحثين الذين وجدوا صعوبة في التوفيق بين قيم الدين وقيم الحضارة و الحداثة ،فقيم الدين تعطي الإنسان مجالا رحبا للتنظير للحياة المادية داخل النسق الديني وهذه القيم

---

[39]-المصدر نفسه ،22/21.

[40]-المصدر نفسه،22/21.

الدينية قادرة على تهذيب التصور الحداثي وجعله أكثر انضباطا واتفاقا مع قيم الدين .

لا نجد مناصا من الاعتراف بوجود نسقين من أنساق التفكير في بناء الحضارة النسق الديني والنسق المادي الذي يعول على العناصر المادية الكامنة في الفعل الحضاري ولا يتعداها إلى غيرها من العناصر الأخلاقية[1].

إن الفكر المادي بالطريقة التي ذكرتها فكر يحرص على إقامة المدنية الظاهرة دون التفكير في الجوانب القيمية التي تتجاوز الحصاد الظاهر إلى الحصاد الحضاري المتكامل الذي يوفق بين متطلبات الإنسان ومقتضيات العمران.

ب-القيم الأخلاقية ومستقبل الإنسانية من منظور الإسلام :

يجب التذكير بأن القيم الأخلاقية في الإسلام نابعة من الفطرة الإنسانية ، ولذلك فهي بمنأى عن التعارض الذي يمكن أن يحصل بينها وبين القيم الحضارية الأخرى وفي مقدمتها القيم المادية ، وقد تحدث بعض الباحثين عن الدور الحضاري الكبير الذي تلعبه الفطرة في توجيه النشاط الإنساني بحيث أن هذه الفطرة تحول دون وقوع الفساد والإفساد الحضاري الذي كان السمة الغالبة للمجتمعات المادية التي ظهرت منذ فجر الإنسانية .

لقد أثار المعنى الشامل للحضارة وأنها جماع النشاط الإنساني المتعدد الجوانب الذي يلبي حاجات الإنسان المختلفة محاولات للتمييز بين الحضارة بهذا المدلول الشامل وبين الجانب المادي منها الذي يطلق عليه اسم الحضارة ويعرب في اللسان العربي باسم المدنية ، على أن هذا لا يعني أن هناك تنافرا بين المدنية والحضارة وأن هناك مدنية من غير حضارة أو حضارة من غير مدنية وإنما يعني أن الحضارة أعم وأشمل فإنه ما من حضارة في أي مجتمع إلا ولها

1-محمد الكتاني ،أزمة القيم في سياق التحولات الحضارية المعاصرة ،مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، سلسلة الدورات، الدورة الربيعية 2001،الرباط ، ص 29 وما بعدها

جانب مادي مدني وجانب روحي حضاري ، يقول محمد فتحي عثمان[42]: وإذا كانت المدنية لا توجد بغير حضارة فمن المهم أن تتوازن الجوانب المادية والروحية في الحضارة لتنمو وتبقى ، وأكبر الخطر على الحضارة وعلى الإنسان الذي هو أساس الحضارة والذي تتميز الحضارة بخصائصه وتعبر عن طبيعته وعن طاقاته وحاجاته في مجموعها .

لقد تخطت الحضارة الإسلامية الأدوات الحضارية أي الحصاد المادي فأحدثت بذلك تغييرا في عالم القيم الحضارية، ولو أن هذا بقي في عصور الانحطاط الفكري على مستوى التصور أي على مستوى التصور الحضاري دون الفعل الحضاري أي التطبيق الفعلي لهذا التصور.

لقد أشاد كثير من المستشرقين بالتميز الحضاري الإسلامي (وقد أجمل جرونيباوم التأثير الحضاري للإسلام في تغييرات أساسية أحدثها في مجال القيم بالنسبة لما كان سائدا قبله بشبه الجزيرة العربية في ظل المجتمعات الوثنية ،وجوهر هذه التغييرات تحديد هدف الحياة وغايتها .

إن الإسلام يجعل الدين والأخلاق حارسا على الحضارة المادية لكي لا تطغى ولا تتجاوز حدودها الإنسانية ولا تجعل الحصاد المادي الحضاري أكبر همها ومبلغ علمها، فهذا هو التصور الحضاري الذي يقدمه الإسلام ويمكن أن يكون بديلا لكثير من الأنماط والأنساق الحضارية التي عملت لتحقيق التفوق المادي بطريقة مجردة.يجب أن نصنف الحضارة وفق منظور الإسلام بحسب صبغتها الروحية وبحسب وجود منظومة من القيم الأخلاقية داخل هذه الصبغة ، وتصنيف الحضارة وفق هذه الصبغة يستلزم أن تأخذ من القيم الأخلاقية بحظ وافر وهذا لا يتوافر في كثير من الفلسفات الدينية وحتى تلك التي تدعي الصبغة

---

[42] محمد فتحي عثمان ، القيم الحضارية في رسالة الإسلام ،الدار السعودية للنشر والتوزيع ا ،1982،ص48.

الإلهية ، فاليهودية على سبيل المثال وإن تضمنت تشريعا دينيا إلا أن قصور هذا التشريع وعدم توفر الاستقرار والاستمرار الضروريين ليكون للتشريع فاعلية هو الذي جعل اليهودية أبعد ما تكون عن إقامة الحضارة بجوانبها المادية والروحية.

وأساس القيم الحضارية في الإسلام الحرص على كرامة الإنسان فالإنسان هو محور الحضارة ، وتحديد وضعه هو منطلق الحضارة فلا تقوم حضارة مع وجود إنسان مهين غير مهيمن ، والحرص على إيجاد مكانة للإنسان في الحركة الحضارية ينبغي أن يواكبه الحرص على إقامة السلطة الحاكمة التي تكفل حرية الإنسان داخل الزخم الحضاري فإقامة الإنسان وإقامة العمران أمران لا بد منهما لتحقيق الحضارة ، وهناك أدلة كثيرة في العالم المعاصر التي تؤكد صدق ما ذهبت إليه ففي أفريقيا على سبيل المثال نجد أن الجماهيرية الليبية بفضل القوانين الاجتماعية والنظم السياسية التي سنتها والتي تجعل الإنسان عاملا محوريا في الفعل الحضاري استطاعت أن تحقق الانسجام والتكامل بين جوانب الحضارة المختلفة الجانب البشري المتمثل في الإنسان والجانب المادي المتمثل في العمران ، والتجربة الليبية الرائدة في هذا المجال كانت منطلقا وأنموذجا فاعلا لتحقيق التكامل الحضاري في مناطق كثيرة من العالم .

إن اللافت للنظر من التقرير الذي تضمنه المؤتمر التبشيري الذي عقد بكولورادو الأمريكية عام 1978 ،أن الإحصاءات الكنسية لأعمال التنصير في أفريقيا سجلت عدمية مطلقة في الجماهيرية الليبية بفضل الصرامة التي أنتهجتها السلطة الحاكمة في هذا الإقليم الأفريقي في تحصين القيم الدينية أمام السيل الجارف للحضارة الغربية الوافدة.

رابعا :نتائج الوصل بين القيم الأخلاقية والقيم المادية من منظور الإسلام

ا-إبراز الجانب الإنساني للحضارة الإسلامية:

إن الماهية الإنسانية لا يمكن أن تتحقق إلا إذا كان للجانب الإنساني قدسية معينة تعلو على كل الحسابات المادية الضيقة ، وفي هذا المضمار فإن الإسلام

حينما وصل القيم الأخلاقية بالقيم المادية للحضارة فإنه يهدف أساسا إلى إيجاد الإنسان الذي هو العنصر المحوري والحيوي في كل عملية حضارية .

إن من شروط الانطلاق الحضاري أو ما يسميه بعض الباحثين الوثبة الحضارية أن يحرص على تحقيق إنسانية الإنسان ؛ ولقد أفاض مالك بن نبي كثيرا في بيان هذه المعادلة الحضارية حيث جعل الحضارة نتاج اجتماع العناصر المادية والبشرية ، ووفق هذه النظرة الشمولية تقوم نظرية التفوق الحضاري في الإسلام .

وهناك قضية مهمة تعزز الجانب الإنساني للحضارة الإسلامية وهي أن الإسلام حريص على تحقيق السلم للمجتمع الإنساني برمته ، لأن السلم أمر ضروري لقيام الحضارة ،وفي هذا السياق فإن الإسلام يرفض منطق القوة ولا يضعها في حالة الاضطرار إلا في موضعها الصحيح يقول مصطفى الرافعي :(...هذا هو دليلنا على أن السلاح لم يكن البتة خطرا يهدد البشرية مادامت الأيدي التي تتصرف به نظيفة طاهرة ومن مقارنة بسيطة للمبادئ المسلحة اليوم كالرأسمالية وغيرها وكيفية استعمال السلاح ، ومن استعراض سريع لمبتكرات العلم الحديثة التي جعلت أجل الإنسانية أوهى من خيط العنكبوت هذا الاستعراض وتلك المقارنة تجعلنا نؤمن إ يمانا لا يداخله ريب ولا شك بأن سلاح الإسلام كان خيرا وبركة وكان أمنا وطمأنينة للناس ...فالإسلام إذن ليس دين القوة)[43].

ويمكن أن أقول بناء على ما ذكره الرافعي أن قوة الإسلام قوة إنشائية وسلاحه سلاح بناء وحربه حرب تعميرية وليست حربا تدميرية .

---

[43]-مصطفى الرافعي ، الإسلام نظام إنساني مراجعة حسن تميم ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بدون تاريخ ، ص194.

إن الإسلام دين يقوم على تحقيق الأمن للمجتمع البشري لا على إثارة القلاقل والبلابل والحروب ،فالأصل في علاقة الإسلام بغيره هو السلم وأن الحرب لا تكون إلا في حالة مخصوصة وهي حالة العدوان .

ب- رفض الإسلام التفسير المادي للحضارة :

إن القيم الأخلاقية التي دعا إليها الإسلام قيم حددها الوحي الإلهي المعصوم، ومن ثم فهي قيم لا تقبل الاختلاط بالفكر المادي الذي لا يقيم وزنا للقيم، يقول خليل أبو العينين:(...ذلك أنه قد تبين أن القيم عبارة عن مفاهيم تدل على مجموعة من المعايير التي تتكون لدى الفرد من خلال تفاعله الاجتماعي مع المواقف والخبرات التي يشترك فيها مع الجماعة ؛ ومعنى هذا أن القيمة تكتسب من المجتمع وتنتقل إلى الأفراد عن طريق التنشئة الاجتماعية ...وإذا كان المجتمع الإسلامي هو المجتمع الذي يتخذ من الإسلام عقيدة وشريعة لتوجيه حياته الفكرية والعملية ولو بنسب متفاوتة حاليا ، فإن وجود هذا المجتمع يعزى إلى التأثير الإسلامي أولا وأخيرا وخاصة تلك التغييرات التي أحدثها في نسق القيم....وعلى أساس هذه القيم تعايش المجتمع المسلم وضبطت كآفة أنشطته تلك القيم التي أصبحت جزءا لا يتجزأ من ثقافة المجتمع)[44].

الخاتمة:

إن الإسلام يرسم خطا بيانيا لمستقبل الإنسانية يراعي القيم الأخلاقية والخصوصيات الفطرية، ويوفر لهذه القيم والخصوصيات تربة إسلامية قادرة على ترشيد الحضارة الإنسانية لتكون نعمة على المجتمع الإنساني لا نقمة، يقول حسن فتح الباب :(...ذلك أن القيم الروحية النابعة من الرسالات السماوية قادرة على هداية الإنسان وعلى إضاءة حياته بنور الإيمان ، وعلى منحه طاقات

---

[44]-علي خليل أبو العينين ، القيم الإسلامية والتربية ، مكتبة إبراهيم حلبي ، المدينة المنورة ، ط1، 1988، ص49 ومابعدها .

غير محدودة لتطوير نفسه ومجتمعه وعالمه في اتجاه الحق والخير والمحبة ، وهي أكبر الحوافز التي تدفعه إلى الكفاح في سبيل نصرة الحرية على العبودية والعدل على البغي والعمل على التواكل والكسل والوحدة على التفكك والانقسام والعلم على الجهل والرحمة على الغلظة والسلام على العدوان)[45].

[45] - حسن فتح الباب، القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات، المكتبة العصرية، مصر، بدون تاريخ، ص7.